Scientific Journal of Faculty of Education, Misurata University-Libya, Vol. 2, No. 19, Mar. 2022
Published online in March
المجلة العلمية لكلية التربية، جامعة مصراتة، ليبيا، السنة السابعة، المجلد السابع، العدد التاسع عشر، مارس 2022
Issn :2710- 4141
تاريخ الاستلام 2022/02/15 تاريخ النشر 2022/05/31

مقامات الحريري ورواية لاثاريو (دراسة مقارنة)

خيرية عمر التايب

قسم اللغة العربية /كلية التربية/ جامعة مصراتة

k.altaieb@edu.misuratau.edu.ly

الملخص:

تحاول الدراسة إجراء مقارنة نصية بين مقامات الحريري ورواية لاثاريو الإسبانية بغية الكشف عن المقاربة المفترضة بين الإنتاجين، وتلمُّس مواطن الالتقاء بينهما داخل الإطار السوسيولوجي، وفق البناء التوليدي للنصين.

وبعد عرض لآراء نقدية تناولت الــتأثير والتأثر بين الإنتاجين العربي والإسباني لفن المقامة، وعرض موجز لأحداث مقامات الحريري ورواية لاثاريو اتجهت الدراسة للبحث عن الرابط الجامع بين النصين بالكشف عن البنيات المكونة لدينامية النصَّيْن، علها تعثر على ومضة تضيئ إجابة من الإجابات عن رهانات الأسئلة المثارة حول العلاقة التأثيرية والاتصال الإبداعي المتبادل.

الكلمات المفتاحية: (مقامة– الحريري– لاثاريو)

Hariri's shrines and Lathario's novel
Comparative study

Khiria Omar Altaieb

Misurata university College of Education

Abstract:

The study attempt to make a text comparison between Hariri's shrines and Lathario's Spanish novel in order to reveal the supposed approach between the two productions, and to see where they meet within the sociological framework, according to the generative construction of the two texts .

Scientific Journal of Faculty of Education, Misurata University-Libya, Vol. 2, No. 19, Mar. 2022
Published online in March
المجلة العلمية لكلية التربية، جامعة مصراتة، ليبيا، السنة السابعة، المجلد السابع، العدد التاسع عشر، مارس 2022
Issn :2710- 4141
تاريخ الاستلام 2022/02/15 تاريخ النشر 2022/05/31

After a presentation of critical opinions on the impact and influence between the Arab and Spanish productions of the art of the maqam, and a brief presentation of the events of hariri's shrines and a novel by Lathario, the study went on to look for the link between the two texts by revealing the structures that make up the dynamics of the two texts, as they stumbled upon a flash that illuminated an answer to the bets of questions raised about the impact relationship and mutual creative communication.

Keywords: shrine- Hariri- Lathario.

المقامة العربية وقصص الشطار الإسبانية:

اكتمل فن المقامات على يد بديع الزمان الهمذاني بوصفه جنسًا أدبيًّا له خصائصه، وقد اقتفى ثلة من الأدباء أثر الذبياني وساروا على نهجه، كان أبرزهم أبو محمد القاسم بن علي البصري (الحريري) الذي عزا بفضل السبق للذبياني، وتضلعه فيه بقوله: "أُنشئ مقامات فيها أتلو البديع، وإن لم يدرك الضالع شأو الضليع" (الحريري، 1980، 11).

و لم يتوقف هذا اللون من الفن عند أدباء المشرق من البلاد الإسلامية، بل امتد عن طريق الرحلات التجارية والفكرية إلى غرب البلاد حتى وصل الأندلس، فلاقى قبولاً وإقبالاً، ونسج على منواله مقامات عديدة لاقت شهرة كمقامة أبي حفص عمر الشهيد (بن بسام، 1981، 2/670)، ومقامة أبي محمد بن مالك القرطبي (بن بسام، 1970، 2/739)، وعبد الرحمن بن فتوح (ابن بسام، 1970، 2/786)، ومن أبرز المقامات الأندلسية: المقامات السرقسطية (اللزومية) للسرقسطي (السرقسطي، 2006،)، المؤلفة من خمسين مقامة عارض فيها الحريري، و لم يقف قبول الأدباء في الأندلس على التأليف، بل تعداه إلى الشرح كشرح الشريشي (الشريشي، بدون تاريخ نشر)، والعبدري الغرناطي (الداوودي، بدون تاريخ نشر).

وفي القرن السادس عشر والسابع عشر الميلادي ظهر في إسبانيا فن قصصي حاكى الواقع الإسباني في صورة هجائية عرف بالقصص البيكارسكية، وعرف عند النقاد العرب بقصص الشطار الإسبان

Scientific Journal of Faculty of Education, Misurata University-Libya, Vol. 2, No. 19, Mar. 2022
Published online in March
المجلة العلمية لكلية التربية، جامعة مصراتة، ليبيا، السنة السابعة، المجلد السابع، العدد التاسع عشر، مارس 2022
Issn :2710- 4141
تاريخ الاستلام 2022/02/15 تاريخ النشر 2022/05/31

(ضيف، 1998، 161). عرف فيها البطل بترحاله الدائم "على غير منهج، وحياته فقيرة بائسة يحياها على هامش المجتمع، ويظل ينتقل بين طبقاته ليكسب قوته" (هلال، بدون تاريخ نشر)"بالحيلة والذكاء واستعمال المقدرة اللغوية" (حمداوي، 2006). وهو شخصية منتمية إلى طائفة المتسولين "ولا يبالي بالقيم ومسائل الأخلاق ما دام الواقع الذي يعيشه منحطًّا وزائفًا في قيمه" (حمداوي، 2006)، وأثناء هذا الترحال الدائم يحمل البطل "المرح على الغالب، مرح ناتج عن احتقار متين لكل ما هو غيبي" (كامب، 1956، 56).

ويرى غنيمي هلال تأثر قصص الشطار بالمقامات العربية مستندًا في رأيه على الأدلة التاريخية التي تشير إلى الانتشار الواسع للمقامة في الأندلس تأليفًا وشرحًا وترجمة، فإلى جانب التأليف والشرح يذكر غنيمي هلال أن "مقامات الحريري ترجمت إلى اللغة العبرية ترجمها سالمون بن زقبيل في القرن الثاني عشر الميلادي، ثم ترجمها الخريزي، وظهرت ترجمة عام 1205م" (هلال، بدون تاريخ ، 215).

فبعد هذا الرواج الكبير الذي لاقته المقامة يكون من "غير المعقول أن تظل مجهولة لدى كتاب الإسبان وقصاصهم بعد ذلك" (هلال، بدون تاريخ ، 215)، ويؤكد شوقي ضيف هذا التأثر، ويرى أن بطل قصص الشطار (البيكارو) في نشأته ومعاناته وحيله وألاعيبه هو "تمامًا كالشيخ أبي زيد السروجي في مقامات الحريري، وكالشيخ أبي حبيب في مقامات السرقسطي مع صبغ كلامه مثلهما بصبغة وعظية خلقية" (ضيف، بدون تاريخ، 526).

وينفي الناقد الإسباني إنخل فلوريس التأثير المباشر للمقامات في البيكاريسك، ويرى "أن هذا التراث القصصي الذي يمثل البطل المتجول والذي يبدو واضحًا في رواية البيكاريسك الإسبانية هو في الواقع سابق لظهور هذه الرواية وسابق لانتقال أدب المقامات من الشرق العربي إلى المغرب، وإلى الأندلس الإسلامية" (حمداوي، 2006).

Scientific Journal of Faculty of Education, Misurata University-Libya, Vol. 2, No. 19, Mar. 2022
Published online in March
المجلة العلمية لكلية التربية، جامعة مصراتة، ليبيا، السنة السابعة، المجلد السابع، العدد التاسع عشر، مارس 2022
Issn :2710- 4141
تاريخ الاستلام 2022/02/15 تاريخ النشر 2022/05/31

ويذهب محمد أنقار إلى أن عدم توفر الأدلة العلمية الدقيقة التي تؤكد تأثر قصص الشطار الإسبانية بالمقامات العربية تأثرًا مباشرًا "لايلغي بتاتًا إمكانية قراءة هذه الرواية الشطارية بموازاة مع أعراف السرد العربي القديم وأساليبه" (حمداوي، 2006).

أثر مقامات الحريري في رواية لاثارو:

أطلق عبد الهادي سعدون لفظ (مقامات) على رواية لاثاريو دي تورميس، لما رأى فيها من تأثر بالمقامات العربية فـــــــــــ"التناصات العربية في رواية لاثاريو كثيرة بعضها مباشرة ترد ضمنًا في سطور الرواية، وأخرى غير مباشرة توحي بها تركيبة الرواية وأجوائها، وقرب خروج العرب من الأندلس وبقاء جالية كبيرة منهم، وأيضًا عدم وجود سابقة في الأدب الإسباني لهذا النمط الحكائي كما أكدته دراسات عديدة منشورة، أما المباشرة فهي حكاية الجنازة التي يلتقي بها لاثارو وسط الجادة ويظن بأنها تحمل إلى دار سيده حامل السلاح [*]، وهي حكاية عربية معروفة نقلها البيهقي في كتابه (المحاسن والمساوئ)، ونقلها شهاب الدين الإبشيهي على لسان عثمان بن دراج الطفيلي في كتابه (المستطرف في كل فن مستظرف)، وكذلك نقلها الأصبهاني صاحب (الأغاني) في فصله المخصص لشخصية الطفيلي. كما إن مؤلفين أندلسيين نقلوها قي كتبهم، منهم ابن عاصم في كتابه (حدائق الأزهار)، ولربما انتقلت في زمن تالٍ إلى اللغة الإسبانية ومنها عرفت في المنطقة" (دي تورميس، 2001، 9).

1. مقامات الحريري:

تدور أحداث مقامات الحريري حول بطلها أبي زيد السروجي، وهو شخصية مبتزة للمال عن طريق الحيلة، يقوم بابتزازه هذا من خلال مجموعة من المغامرات، سمى الحريري كل مغامرة منها مقامة،

[*] التقى لاثاريو بجنازة "وكانت زوجته تقول: يا زوجي وسيدي أين يحملونك؟ إلى الدار المحزنة الكئيبة، إلى الدار المظلمة المعتمة، إلى المترل الذي لا يأكل فيه ولا يشرب"، فعاد لاثاريو إلى سيده خائفًا ظنًا منه أنهم يحملون الجنازة إلى بيتهم، لأن الصفات التي ذكرتها الزوجة تنطبق على ذلك البيت.

Scientific Journal of Faculty of Education, Misurata University-Libya, Vol. 2, No. 19, Mar. 2022
Published online in March
المجلة العلمية لكلية التربية، جامعة مصراتة، ليبيا، السنة السابعة، المجلد السابع، العدد التاسع عشر، مارس 2022
Issn :2710- 4141
تاريخ الاستلام 2022/02/15 تاريخ النشر 2022/05/31

ويروي مغامراته راوية أسماها الحارث بن همام، بلغ عدد المقامات –فيما وصل– خمسين مقامة رويت في قالب لغوي مسبوك متين.

2. رواية لاثارو:

ظهرت الرواية اللصوصية كـــــــــــــ"رد فعل عنيف ضد تفاهة الرعيانيات والغراميات الفروسية المفرطة بالدقة، وأعنف هجاء يمكن قذفه في وجه العواطف السامية التي تمجد شجعان ذلك الزمان" (دي تورميس، 2001، 55)، وكانت رواية لاثارو دي تورميس أول رواية لصوصية عرفها الإسبان فأول "طبعة معروفة لها تعود إلى سنة 1554" (دي تورميس، 2001، 56)، أما كاتب الرواية فمجهول، نسبها بعضهم "إلى دييجو دي مندوزا" (دي تورميس، 2001، 56). وبطل الرواية لاثارو، يروي قصة حياته بكثير من الواقعية الموغلة في القسوة، فتبدأ قصته من لحظة ولادته على نهر تورميس في قرية تيخارس من أم تدعى أنطونا بيريث، وأب يدعى توماغونثاليث، كان والده يعمل في الضيعة نفسها مشرفًا على طاحونة، على مجرى النهر، اتهم الوالد ببعض الاختلاسات التي جرت في أكياس طحين جاءوا بها إليه فنفي، ثم اشتغل سائس لأحد الفرسان المشاركين في الحملة ضد المسلمين فمات السيد والسائس في جزيرة جربة، هاجرت والدته بطفلها البالغ من العمر ثمانية أعوام إلى المدينة، وعملت طاهية للطلبة، وغسّالة لثياب سياس خيول فرقة ماجدلينا الدينية، تعرفت على رجل أسود من الذين يمتهنون علاج البهائم، وأنجبت منه طفلاً، اكتشف صاحب البيت وجود سعيد (الرجل الذي تعرفت عليه الأم) بينهم، كما اكتشف نقصًا في طعام الخيل وفرشها، فعلم أن سعيد كان يسرق منها لإطعام الأم والطفلين، فجلدوا كلاًّ من سعيد والأم، وأمروها أن تتزح بعيدًا عن بيت قائد الفرقة، وأن تطرد سعيد، عملت الأم في خان لايولانا، وأثناء عملها التقت برجل أعمى، طلب منها الأعمى ابنها لاثارو للعمل صبي له، لم يكن العمل عند الأعمى مريحًا للاثارو رغم أنه علمه فنون التسول، والحصول على المال بطريقة التحايل، فقد جوّعه، وضربه بقسوة، فتركه بحيلة ربما أودت بحياة الأعمى، ثم عمل خادمًا عند كاهن بخيل كان أسوأ من الأعمى، ثم عند فارس جائع، ثم عمل خادمًا عند شخصيات كبيرة،

Scientific Journal of Faculty of Education, Misurata University-Libya, Vol. 2, No. 19, Mar. 2022
Published online in March
المجلة العلمية لكلية التربية، جامعة مصراتة، ليبيا، السنة السابعة، المجلد السابع، العدد التاسع عشر، مارس 2022
Issn :2710- 4141
تاريخ الاستلام 2022/02/15 تاريخ النشر 2022/05/31

ولصوص، وبهذا نفذ إلى مجموعة من النماذج الإنسانية، والطبقات التي أصدر حكمه عليها، وانتهى به الأمر مناديًا في شوارع طليطلة (دي تورميس، 2001، 15-82).

والسؤال هنا: أين تقف رواية لاثارو من مقامات الحريري في بنائها المكون لدينامية النص؟

البناء التكويني للنصّيْن:

أولاً: الرؤية إلى الحياة:

رأى السروجي الواقع سوداويًّا، فرفضه ورفض الحياة جملة، بل رفض الوجود الإنساني كاملًا وآثر العدم، أعلن عن رؤيته هذه في المقامة (العمانية) في نصيحة قدمها للجنين، الذي تعسرت ولادته، فكتب أبياتًا في رقية بعد ادعائه أنه صانع عزيمة تسهل ولادة الجنين، فكتب على زبد (*) بعد أن "سجد وعفّر وسبّح واستغفر، وأبعد الحاضرين ونفّر...

أيّهَذا الجَنينُ إنـــي نـــصـــيحٌ ... لكَ والنّصحُ منْ شُروطِ الدّينِ
أنتَ مُستَعْصِمٌ بكِـــنّ كَـــنـــينٍ ... وقَرارٍ منَ السّكونِ مَـــكـــينِ
ما تَرى فيهِ ما يَروعُكُ منْ إل ... فٍ مُداجٍ ولا عـــدوٍّ مُـــبـــينِ
فمتى ما برَزْتَ منهُ تـــحـــوّلْ ... تَ إلى منزِلِ الأذى والهونِ
وتَراءى لكَ الشّقاءُ الذي تـــلْ ... قَى فتَبْكي لهُ بدَمْعٍ هَـــتـــونِ
فاستَدِمْ عيشَكَ الرّغيدَ وحـــاذِرْ ... أن تَبيعَ المَحقوقَ بالمظْنـــونِ
واحتَرِسْ من مُخادِعٍ لك يرْقي ... كَ ليُلقيكَ في العذابِ المُهينِ"

(الحريري، 1980، 341)

(*)حجارة معروفة شديدة البياض يوجد على وجه البحر. ابن منظور، لسان العرب، 1970،مادة (زبد).

Scientific Journal of Faculty of Education, Misurata University-Libya, Vol. 2, No. 19, Mar. 2022
Published online in March
المجلة العلمية لكلية التربية، جامعة مصراتة، ليبيا، السنة السابعة، المجلد السابع، العدد التاسع عشر، مارس 2022
Issn :2710- 4141
تاريخ الاستلام 2022/02/15 تاريخ النشر 2022/05/31

فقد رفض السروجي الحياة؛ لأنها مترل الأذى والهون، فالحياة -في رأيه- تعلن عن نفسها للشخص لحظة ولادته فما بكاء الطفل لحظة الولادة إلا بسبب تكشف الشقاء له، باديًا ذلك في قوله:

وتَراءى لكَ الشّقاءُ الذي تــلْ قَى فتَبْكي لهُ بدَمْعٍ هَــتــونِ

فيعلن الطفل عن هزيمته أمام الشقاء، المعلن عنها في فعل البكاء، وفي استخدام حرف العطف الفاء دلالة على سرعة الهزيمة، كذلك استمرارها، وهذا ظاهر في الفعل المضارع (فتبكي) لدلالته على الحضور والاستمرار.

وإن قدم السروجي رؤية عامة للحياة، وتجربة إنسانية عامة، لكنها كانت نابعة من تجاربه هو، ومعاناته الخاصة.

هذه الرؤية للحياة ظهرت عند لاثارو في صورة مؤطرة بالخصوصية، قدمها من خلال تجاربه ومعاناته الخاصة دائمة التردي والنزول إلى الأسفل، دون سحبها على بقية البشر، فهو محاصر بحظ سيء، ومستقبل لن يقدم له إلا مزيدًا من البؤس، ظهر هذا في مجموعة مواقف منها:

أ- أنه رفض فكرة الهروب من القسيس لإيمانه أن الحياة لن تقدم له أفضل منه فــ"لقد كان لي سيدان: أولهما جعلني أشعر بالجوع، ولما تركته عثرت على هذا الذي قادني إلى حافة القبر، فلو تخليت عن هذا، فسأقع بمن هو أسوأ منه، حينذاك ما سيكون من شأني؟ لهذا لم أجد ما يحركني؛ لأنني آمنت تمامًا بأنني سأحظى بخراب آخر في أية درجة كنت" (دي تورميس، 2001، 35).

ب- بكاؤه على حياته، وشعوره بموته الوشيك عندما أدرك أن سيده (حامل السلاح) رجل فقير جائع مثله فقال: "صدقني يا سيدي حين أقول لك بأنني ما إن سمعته حتى كنت على وشك السقوط من الإعياء... فبكيت على حياتي المتعبة الماضية، وعلى موتي الوشيك القادم" (دي تورميس، 2001، 47-48).

Scientific Journal of Faculty of Education, Misurata University-Libya, Vol. 2, No. 19, Mar. 2022
Published online in March
المجلة العلمية لكلية التربية، جامعة مصراتة، ليبيا، السنة السابعة، المجلد السابع، العدد التاسع عشر، مارس 2022
Issn :2710- 4141
تاريخ الاستلام 2022/02/15 تاريخ النشر 2022/05/31

ج- كما ظهرت رؤيته للحياة، في نعي حظه، وذلك بأن الجوع سيلازمه طوال حياته، ظهر عندما أخبره سيده (حامل السلاح) بأنهما سيمضيان ليلتهما دون طعام، فقال لاثارو لسيده: "لا تزعج نفسك من أجلي يا سيدي، أستطيع أن أمضي ليلة، بل أكثر من ليلة دون طعام، فأجاب السيد: وسينفع صحتك، كما قلنا، اليوم لا شيء في الدنيا كلها يجعل أحدنا يصمد أطول خيرًا من الطعام القليل، فقلت في سري: إذا كان هو الطريق الناجح، فإنني لن أموت أبدًا، ذلك أنني راعيت القاعة رغمًا عن أنفي، وأشعر أنني سأراعيها طول حياتي؛ لأن سوء حظي شاء ذلك" (دي تورميس، 2001، 35).

ثانيًا: الموقف من الحياة:

إذا كانت الحياة سوداوية عند الطرفين فما موقف كل منهما منها؟!

1- اللامبالاة:

وقف البطلان إزاء الحياة موقف الساخر منها غير المبالي لما يحدث له أو لغيره، وأعلن السروجي عن عدم مبالاته في مقامته الأولى (الصنعانية) بعد أن توارى في شخصية واعظ ديني محذرًا الناس من الانكباب على الدنيا ونسيان الآخرة، فكشفه الحارث بن همام بعد أن لحق به في مغارة وهو "مثافناً لتلميذ على خبز سميد، وجدي حنيذ، وقبالتهما خابية نبيذ" (الحريري، 1980، 20)، لم يكن السروجي مباليًا باكتشاف أمره من قبل الحارث، وهما لأول مرة يلتقيان، فكان رده: "أُدنُ فكُل، وإن شئت فقم وقل" (الحريري، 1980، 21). وكيفما كان الزمان عليه أن يتقبله وينصاع له، فعندما سأله الحارث عن حاله والحوادث في المقامة الدينارية أجاب: "أتقلب في الحالين بؤس ورخاء، وأنقلب مع الريحين زعزع ورُخاء" (الحريري، 1980، 33)، وتمتد اللامبالاة عند السروجي في استخدام الزوجة شريكة له في التحايل ونعتها أمام القاضي والحضور بأفظع الأوصاف، فوقف في المقامة (التبريزية) مخاصمًا إياها أمام القاضي فقال: "ويْلَكِ يا دَفارِ(*) يا فَجارِ، يا غُصّةَ البعْلِ والجارِ، أتَعْمِدينَ في الخَلوَةِ

(*) دفار: نتنة، ابن منظور، لسان العرب، مادة (دفر).

Scientific Journal of Faculty of Education, Misurata University-Libya, Vol. 2, No. 19, Mar. 2022
Published online in March
المجلة العلمية لكلية التربية، جامعة مصراتة، ليبيا، السنة السابعة، المجلد السابع، العدد التاسع عشر، مارس 2022
Issn :2710- 4141
تاريخ الاستلام 2022/02/15 تاريخ النشر 2022/05/31

لتَعْذيبي، وتُبدينَ في الحَفلَةِ تكْذيبي؟ وقد علِمْتِ أني حينَ بَيتُ عليْكِ، ورنَوْتُ إليْكِ، ألفَيتُكِ أقْبَحَ من قِرْدَةٍ، وأيْبَسَ منْ قِدّةٍ(**)، وأخشَنَ من لِيفَةٍ، وأنْتَنَ منْ جيفَةٍ، وأبرَزَ من قِشرَةٍ(***)، وأبْرَدَ من قِرّةٍ، وأحمَقَ من رِجلَةٍ(****)" (الحريري، 1980، 347)، فالمهم جلب المال كيفما اتفق الثمن.

واتفق لاثارو مع السروجي في اتخاذ اللامبالاة وسيلة يقف بها ضد الحياة، فظهرت لامبالاته في بداية قصته عند دخول الرجل (سعيد) إلى بيتهم، وطبيعة علاقته بوالدته فـــــــــــ "أول الأمر كنت أغضب لمجيئه ويعتريني خوف من لون بشرته، وتكشيرته القبيحة، لكنني أحببته عندما لاحظت تحسن طعامنا بمجيئه، ذلك أنه كان يجلب معه بشكل دائم الخبز وقطع اللحم، وفي الشتاء حطبًا نستدفئ به" (دي تورميس، 2001، 16)، فتَحَسُّنُ الحال ومجيئ الطعام، جعله غير مباليًا بطبيعة علاقته بأمه.

وإن لمسنا له العذر لطفولته، وجوعه فهو في سن لا تتجاوز العاشرة، لكن اللامبالاة تمتد معه لتصل ذروتها في موقفه من حديث الناس عن زوجته في نهاية القصة فلم يحاول التحقق مما يقال، وفضل التجاوز عنه؛ لأن مصلحته تقتضي ذلك، رغم أنه بعث بإشارات إلى القارئ تبعث الشكوك دون أن يؤكد ذلك أو ينفيها (دي تورميس، 2001، 80- 81).

2- التسول:

إن الحياة القاسية التي أجبرتهما على اتخاذ موقف اللامبالاة لحوادثها، جعلتهما يتخذان من التسول وسيلة للعيش، وإن ظهر السروجي أشد التصاقًا به، فقد بدا التسول وسيلته الوحيدة للكسب، بل الوسيلة التي رآها أفضل الوسائل لكسب عيشه فهي "المتجَرَ الذي لا يَبورُ، والمنهَل الذي لا يغورُ،

(**) القدة: القطعة من الجلد غير المدبوغة. ابن منظور، لسان العرب، مادة (قدد).

(***) أراد أنها غير مخدرة.

(****) رجلة: البقلة الحمقاء تنبت في مجاري السيل فيجرفها. ابن منظور، لسان العرب، مادة (رجل).

Scientific Journal of Faculty of Education, Misurata University-Libya, Vol. 2, No. 19, Mar. 2022
Published online in March
المجلة العلمية لكلية التربية، جامعة مصراتة، ليبيا، السنة السابعة، المجلد السابع، العدد التاسع عشر، مارس 2022
Issn :2710- 4141
تاريخ الاستلام 2022/02/15 تاريخ النشر 2022/05/31

والمِصْباح الذي يعْشو إلَيْهِ الجُمهورُ، ويستصْبِحُ بهِ العُمْيُ والعورُ، وكانَ أهلُها أعَزّ قَبيلٍ، وأسعَدَ جيلٍ، لا يَرْهَقُهُمْ مسٌّ حيْفٍ، ولا يُقلِقُهُمْ سَلٌّ سيْفٍ، أيْنما سقَطوا لقَطوا، وحيثُما انخرَطوا خرَطوا(*)، لا يتّخذونَ أوْطاناً، ولا يتّقونَ سُلطاناً، ولا يمْتازونَ عمّا تغْدو خِماصاً وتَروحُ بِطاناً" (الحريري، 1980، 436).

أما لاثارو فقد عمل خادمًا عند عدد من طبقات المجتمع، ومارس التسول مع الرجل الأعمى في بداية حياته، ثم تحول إلى مهنة يمتهنها في رحلة البحث عن سيد آخر يعمل عنده، فعندما ترك الرجل الأعمى ساقته قدماه إلى القسيس ليطلب منه صدقة (دي تورميس، 2001، 31)، وعندما طرده القسيس بعد معاناة في خدمته، فخرج مثقلاً بالجوع والجراح نتيجة ضربه له، خرج إلى طليطلة، وفي تلك الأثناء "كان الناس يهبونني الصدقات" (دي تورميس، 2001، 45)، كذلك كان يمتهن التسول عندما لا يجد ما يسدّ رمقه، فقد خرج للتسول عندما كان خادمًا لحامل السلاح، فاستجدى خبزًا على الأبواب والدور التي بدت له ذات غنى" (دي تورميس، 2001، 53).

3- التحايل:

إن مهنة التسول تحتاج إلى تحايل على الآخر لإقناعه ببؤس حاله، فمارس السروجي مجموعة من الحيل، فخرج في صورة امرأة عجوز في المقامة البغدادية، فروى الحارث بن همام أنه التقى بمشيخة من الشعراء، وتبارى معهم الشعر "فلمّا غاضَ دَرُّ الأفكار وصبَتِ النّفوسُ إلى الأوْكارِ، لمحْنا عجوزاً تُقبِلُ منَ البُعْدِ، وتُحضِرُ إحْضارَ الجُرْدِ، وقدِ استَتْلَتْ صِبيَةً أنْحَفَ منَ المَغازِلِ، وأضعَفَ منَ الجَوازِلِ، فما كذّبَتْ إذ رأتْنا، أن عرَتْنا، حتى إذا ما حضرَتْنا، قالت..." (الحريري، 1980، 112)،كما كان يظهر في صورة واعظٍ، وأحيانًا حجاماً، ثم معلم صبية، ومرة أخرى رجل أعمى، ومرة خفيرًا لقافلة، وغير ذلك من الصور التي تحايل من خلالها على الناس للكسب المادي.

(*)خرطوا: قشّروا. ابن منظور، لسان العرب، مادة (خرط).

Scientific Journal of Faculty of Education, Misurata University-Libya, Vol. 2, No. 19, Mar. 2022
Published online in March
المجلة العلمية لكلية التربية، جامعة مصراتة، ليبيا، السنة السابعة، المجلد السابع، العدد التاسع عشر، مارس 2022
Issn :2710- 4141
تاريخ الاستلام 2022/02/15 تاريخ النشر 2022/05/31

وإن لم تظهر صورة التحايل عند لاثارو في لحظة تسوله إلا من جهة الوصف وذلك في قوله: "وعلى الرغم من قلة التصدق في هذه الناحية والعام الذي لم يكن وفير الغلة، إلا أنني نجحت في تسولي إلى درجة أنه ما أن أوشكت الرابعة أن تقدم حتى كنت قد ملأت ردائي بأرطال الخبز" (دي تورميس، 2001، 54).

غير أن تحايله تجلّى واضحًا في حصوله على طعامه من سيده الأعمى، ورجل الدين، فقد اعتاد الأعمى "أن يحمل الخبز وأشياء أخرى في عليقة من القماش، يغلق فوهتها بحلقة من حديد لها قفل ومفتاح، وكان إذا أراد أن يضع أو يستخرج منها شيئًا يعمله باحتراس وبحساب دقيق إلى درجة أن العالم كله لا يستطيع أن يستخرج من بين يديه أقل القليل، وكنت أتناول ما يمنحني من الفتات القليل الذي ألتهمه بأقل من لقمتين، ولكنه عندما يقفل على عليقته ويطمئن، أكون مشغولاً بأشياء أخرى، فالقليل من الفتق في موضع من العليقة، الذي كثيرًا ما أفتقه لأعود لخياطته، كنت أستخرج من الخبز وشرائح من اللحم المقلي والسجق دون عدٍّ. وهكذا كنت أنتظر الوقت المناسب لأهجم، لا لمعاودة الكرة، بل لاسترجاع ما حرمني منه الأعمى" (دي تورميس، 2001، 21).

أ– سبب التحايل:

ردّ السروجي سبب تحايله إلى وحشية أهل زمانه وتقلب دهره، صرح بذلك في قوله (الحريري، 1980، 431):

عِشْ بالخِداعِ فأنتَ في دهْرٍ بَنوهُ كأُسْدِ بيشَهْ
وأدِرْ قَناةَ المَكْرِ حتـــى تسْتَديرَ رَحى المَعيشَهْ

واتفق لاثارو مع السروجي فردّ سبب تحايله إلى وحشية الشخصيات التي عمل تحتها، فقد منعته من حقه في إخفاء جوعه، فاضطر إلى استخدام الحيلة، فصرح بذلك –كما تقدم– في قوله: " وهكذا كنت أنتظر الوقت المناسب لأهجم، لا لمعاودة الكرة، بل لاسترجاع ما حرمني منه الأعمى"

Scientific Journal of Faculty of Education, Misurata University-Libya, Vol. 2, No. 19, Mar. 2022
Published online in March
المجلة العلمية لكلية التربية، جامعة مصراتة، ليبيا، السنة السابعة، المجلد السابع، العدد التاسع عشر، مارس 2022
Issn :2710- 4141
تاريخ الاستلام 2022/02/15 تاريخ النشر 2022/05/31

(دي تورميس، 2001، 21). وفي حرمانه من الطعام من قبل القسيس، الذي كان يخبئ الخبز في صندوق مقفل، و لم يكن نصيب لاثارو منه إلا الفتات القليل الذي لم يقم أوده، قال: "وبينما أنا في محنتي التي أرجو أن يخلص الرب كل مسيحي مخلص منها، ودون أن ألمح خلاصًا بعد، وأجدني أمضي من سيئ إلى أسوأ حدث أن ظهر سيدي المنافق الشرير البخيل خارج المدينة، واقترب من بابنا سمكري، يسألني إن كنت في حاجة إلى تصليح شيء فحسبته ملاكًا أرسله الرب، فقلت: بهمس لا يسمع: "في داخلي ستجد شغلاً كثيرًا، ولن يكون عملك قليلاً في إصلاح عطبي". ولما لم يكن عندي وقت أضيعه في المزاح أو الشكر وكأن الروح القدس تنيرني، قلت له:

– يا عم، لقد أضعت مفتاح هذا الصندوق وأخشى أن يجلدني سيدي إن عرف، بحياتك عسى أن تجد مفتاحًا يفتحه من هذه التي تحمل معك" (دي تورميس، 2001، 35).

ب– التدرب والتمرس في التحايل:

لم يكن التحايل صفة موروثة أو ملكة فطرية عند كلا البطلين، بل هو سلوك مكتسب لا بد من التدرب عليه والتفوق فيه، تجلّى ذلك عند السروجي في صورة العروس المكدية، التي انتدب السروجي لتزويجها من مكدٍ، ومن خلال طقوس الخطبة قدم السروجي المرأة متدرّجًا في رسم صورتها، مبتدئًا بتربيتها في بيت أهلها، ثم صورتها في بيت زوجها بقوله: "وهذا أبو الدّرّاجِ، ولاّجُ بنُ خرّاجٍ، ذو الوَجْهِ الوَقاحِ، والإفْكِ الصُّراحِ، والهَريرِ والصّياحِ، والإبْرام والإلْحاحِ، يخطُبُ سَليطَةَ أهلِها، وشَريطَةَ بعلِها، قَنْبَسَ بِنْتَ أبي العَنْبَسِ" (الحريري، 1980، 258).

إن في إسناد (السليطة) إلى الأهل ما يوحي بتربيتها من قبل الأهل على ذلك، ومباركتهم لها فيها، بل ربما التباهي من جهة الأهل بذلك، ثم تفوقها على أفراد العائلة في هذه الصفة.

ثم انتقل في وصفها إلى اسمها ونسبها (قنبس بنت أبي العنبس) ففي اختياره لهذا الاسم إشارتان: الأولى (النار)، فالنون زائدة "والقبس الشعلة من النار" (ابن منظور، 1970، مادة قبس)، وهي هنا

Scientific Journal of Faculty of Education, Misurata University-Libya, Vol. 2, No. 19, Mar. 2022
Published online in March
المجلة العلمية لكلية التربية، جامعة مصراتة، ليبيا، السنة السابعة، المجلد السابع، العدد التاسع عشر، مارس 2022
Issn :2710- 4141
تاريخ الاستلام 2022/02/15 تاريخ النشر 2022/05/31

تحمل معنى الاحتراق والالتهام لكل من اعترضها، أما الإشارة الثانية فهي (العلم)، قال الكسائي: "واقتبست منه علمًا ونارًا سواء" (ابن منظور، 1970، مادة قبس)، والقوابس: "الذين يقبسون الناس الخير يعني يعلمونهم، وأتانا فلان يقتبس العلم فأقبسناه أي علمناه" (ابن منظور، 1970، مادة قبس).

ووفقًا للإشارة الثانية (العلم) تكون من صفاتها أنها معلمة لغيرها مهنة الكدية ومهاراتها، وقدم مكان الترعرع، وعلاقتها بزوجها على اسمها؛ لأن الاسم يحمل معنى التعليم، وإفادة الآخر، فهي مدرِّبة ومعلّمة، ولا يمكن لها أن تكون كذلك، إلا بعد تدربها في بيت أهلها أولاً، وعلى يد زوجها ثانيًا.

كما ظهرت الرغبة في تعلم هذا السلوك عند ابن السروجي عندما أوصاه والده في اتخاذها وسيلة لعيشه فقال: " يا أَبَتِ لقدْ صدَقْتَ، في ما نطَقْتَ، ولكنّك رتَقْتَ وما فتَقْتَ، فبيّنْ لي كيفَ أقتَطِفُ، ومنْ أينَ تؤكَلُ الكتِفُ؟" (الحريري، 1980، 436).

كما تدرب لاثارو على يد الأعمى، وظل يذكر له هذا الفضل في مواقف عدة منها قوله: "بدأت أستجدي خبزًا على الأبواب والدور التي بدت لي ذات غنى، ولما كنت قد تشربت بهذه المهنة، أقصد أنني تعلمتها من أستاذ كبير هو الأعمى، فقد تحولت إلى تلميذ نجيب" (دي تورميس، 2001، 53)..

والبطلان كلاهما متمرس في التحايل يرسمان خططًا شيطانية يصعب كشفها، فكان السروجي يتقنع –كما سبق– بقناع شخصيات مختلفة، ويسحر الناس بأدبيته العالية، من ذلك أنه ادعى أنه كان قاتلاً للفتيات ثم تاب، فربّى فتاة هو عاجز الآن عن تزويجها بسبب فاقته فقال (الحريري، 1980، 308):

أستَغْفِرُ اللهَ وأعْنو لهُ منْ فرَطاتٍ أثقَلَتْ ظَهْرِيَهْ
يا قوْمُ كمْ منْ عاتِقٍ عانسٍ ممدوحَةِ الأوْصافِ في الأنديَهْ
قتَلْتُها لا أتّقي وارِثاً يطْلُبُ مني قوَداً أو دِيَهْ
وكلّما استَذْنَبْتُ في قتْلِها أحَلْتُ بالذّنْبِ على الأقْضِيَهْ

Scientific Journal of Faculty of Education, Misurata University-Libya, Vol. 2, No. 19, Mar. 2022
Published online in March
المجلة العلمية لكلية التربية، جامعة مصراتة، ليبيا، السنة السابعة، المجلد السابع، العدد التاسع عشر، مارس 2022
Issn :2710- 4141
تاريخ الاستلام 2022/02/15 تاريخ النشر 2022/05/31

ولمْ تزَلْ نفسي في غَيّها وقتْلِها الأبكارَ مُستَشْرِيَهْ
حتى نَهاني الشّيبُ لّما بَدا في مَفْرِقي عنْ تِلكمُ المَعصِيَهْ
فلمْ أُرِقْ مُذْ شابَ فَوْدي دماً منْ عاتِقٍ يوماً ولا مُصْبِيَهْ

وها أنا الآن على ما يُرى مني ومِنْ حِرْفَتي المُكدِيَهْ

قال الراوي: فلمْ يبْقَ في الجَماعَةِ إلا منْ ندِيَتْ لهُ كفُّهُ، وانْباعَ إلَيْهِ عُرْفُهُ، فلمّا نجَحَتْ بُغيَتُهُ، وكمَلَتْ مِئتُهُ، أخذَ يُثْني عليْهِمْ بصالِحٍ، ويشمِّرُ عنْ ساقِ سارحٍ، فتَبِعْتُهُ لأستَعْرِفَ رَبيبَةَ خِدْرِهِ، ومنْ قتَلَ في حِدْثانِ أمرِهِ، فكأنّ وشْكَ قِيامي، مثّلَ لهُ مَرامي، فازْدَلَفَ مني، وقال: افْقَهْ عني (الحريري، 1980، 309):

اقتْلُ مِثلي يا صاحِ مزْجُ المُدامِ ليسَ قتْلي بلَهْـذَمٍ أو حُسـامِ
والتي عُنسَتْ هيَ البكرُ بنتُ ال كَرْمِ لا البِكْرُ من بَناتِ الكِرامِ
ولتَجْهيزِها الى الـكـاسِ والـطّـا سِ قِيامي الذي تَرى ومُـقـامـي
فتَفَهّـمْ ما قُلـتُـهُ وتَحَكّمْ في التّغاضي إنْ شِئتَ أو في المَلامِ"

كما أظهر لاثارو براعة في تحايله على الأعمى فروى قصته مع جرة النبيذ فقال: "عندما كنا نأكل، اعتاد أن يضع قربه جرة نبيذ صغيرة، وكنت أنا في أول الأمر وبحذر شديد أرتشف منها جرعتين وأعيدها إلى مكانها، لكن الحال لم تستمر طويلاً؛ لأنه أخذ يعد جرعاته ويلاحظ ما ينقص، ومن ثم لم يترك الجرة، بل يمسكها بقوة في يده، ولكن لا يوجد حجر مغناطيس مثلي في اجتذاب النبيذ عن طريق عود شعير طويل، أمدّه في فوهة الجرة، ماصًّا النبيذ ما استطعت.

ولكن الخبيث كان متنبهًا بحيث أنني أعتقد بأنه أحسّ بي، وهكذا فقد صمت تمامًا وظل يضع الجرة بين ركبتيه سادًّا فوهتها بيده، ولما أصبحت حيلة عود الشعير لا تنفع خطر ببالي أن صنبورًا أو ثقبًا

Scientific Journal of Faculty of Education, Misurata University-Libya, Vol. 2, No. 19, Mar. 2022
Published online in March
المجلة العلمية لكلية التربية، جامعة مصراتة، ليبيا، السنة السابعة، المجلد السابع، العدد التاسع عشر، مارس 2022
Issn :2710- 4141
تاريخ الاستلام 2022/02/15 تاريخ النشر 2022/05/31

دقيقًا في كعب الجرة، وأسدّه بطبقة رقيقة من الشمع، وعندما يحين وقت الطعام، متظاهرًا بأنني أشعر بالبرد، كنت أنزلق بين ساقي الأعمى المسكين طلبًا للاستدفاء بناره الهزيلة، وكان الشمع آنذاك ينصهر من الدفء، فيبدأ صنبور النبيذ بالتدفق في فمي، وعندما يشرع المسكين بالشرب فلا يجد شيئًا منه، يندهش ويلعن الشيطان بجرة النبيذ لأنه لم يفهم بعد الأمر" (دي تورميس، 2001، 22).

ج- الموقف من الشخصية المحتال عليها:

اتفق السروجي ولاثارو في عدم الاكتراث لما يحدث للشخصية المحتال عليها، وما سيصيبها، شأنهما في ذلك شأن أي محتال، فقد ترك السروجي القاضي (الضحية) بعد أن احتال عليه في حالة تخبط " فطَلْسَمَ وطرْسَمَ، واخْرَنْطَمَ وبرْطَمَ، وهمْهَمَ وغمْغَمَ، ثمّ التفَتَ يَمنَةً وشامةً، وتمْلَمَلَ كآبَةً ونَدامَةً، وأخذ يذُمّ القضاء ومَتاعِبَهُ، ويَعُدّ شوائِبَهُ ونَوائِبَهُ، ويفَنّدُ طالِبَهُ وخاطِبَهُ، ثمّ تنفّسَ كما يتنفّسُ الحَريبُ، وانتَحَبَ حتى كادَ يفضَحُهُ النّحيبُ، وقال: إنّ هذا لَشَيْءٌ عجيبٌ، أأُرْشَقُ في موقِفٍ بسَهْمَيْنِ، أأُلزَمُ في قَضيّةٍ بمَغْرَمَيْنِ، أأُطيقُ أنْ أُرضيَ الخصْمَيْنِ، ومنْ أينَ ومِنْ أينَ؟" (الحريري، 1980، 351).

كما ترك لاثارو ضحيته الأعمى بعد أن نصب الكمين له، دون أن يلتفت إلى مصيره في قوله: "وتركته بين أيدي الناس الذين هرعوا لنجدته، أما أنا فركضت بلا توقف حتى بوابة المدينة، فوصلت إلى توريخوس قبل حلول الليل، ولم أعرف ما فعل الله بالأعمى، ولم أحفل بمعرفة ذلك" (دي تورميس، 2001، 30).

لكنهما اختلفا في الشخصية المحتال عليها، فالسروجي لم يفرق بين الشخصيات فقد احتال على صديقه ابن همام، كما احتال على الصغار الجياع عند استخدامه لهم كأداة من أدوات الحيلة في المقامة البغدادية "فانغَمَسَتْ في الغُمارِ. وامّلَسَتْ منَ الصّبّيَةِ الأغْمارِ" (الحريري، 1980، 112).

Scientific Journal of Faculty of Education, Misurata University-Libya, Vol. 2, No. 19, Mar. 2022
Published online in March
المجلة العلمية لكلية التربية، جامعة مصراتة، ليبيا، السنة السابعة، المجلد السابع، العدد التاسع عشر، مارس 2022
Issn :2710- 4141
تاريخ الاستلام 2022/02/15 تاريخ النشر 2022/05/31

أما لاثارو فقد فرّق بين الشخصيات، فلم يحتلْ على سيده حامل السلاح، بل أشفق عليه وصار يطعمه: "فناولته كارعًا وثلاث أو أربع قطع خبز ناصع البياض، فجلس قربي وبدأ يأكل برغبة" (دي تورميس، 2001، 56).

وربما عاد ذلك إلى الدافع الحقيقي لكلا الطرفين من التحايل، فالسروجي جعل من التحايل وسيلة وأداة من أدوات مهنته التي اختارها بعد أن قلّب مجموع المهن، فقد رأى أن الإمارة "كأضْغاثِ الأحْلامِ، والفَيْءِ المُنتَسِخِ بالظّلامِ، وناهيكَ غُصّةً بمَرارَةِ الفِطامِ، وأما بضائِعُ التّجاراتِ، فعُرْضَةٌ للمُخاطَراتِ، وطُعمَةٌ للغاراتِ، وما أشبَهَها بالطّيورِ الطّيّاراتِ، وأما اتّخاذُ الضِّياعِ، والتّصدّي للازدِراعِ، فمنْهَكَةٌ للأعْراضِ، وقُيودٌ عائِقَةٌ عنِ الارْتِكاضِ" (الحريري، 1980، 435- 436).

كما إن نظرته إلى المجتمع نظرة عامة في الشر، فكأنه وجه سخطه على كل أفراد المجتمع، لذلك نقرأ العمومية في الحكم على الدهر والمجتمع- كما مر بنا سابقًا.

أما لاثاريو فقد خصص هذه النظرة، فكان سخطه منصبًّا على أشخاص بعينهم، ولديه الرغبة في التعايش بسلام مع غيرهم، لذلك عطف على حامل السلاح الذي رأى فيه ذاته الجائعة، وشخصيته المظلومة من قبل السلطة التي ظلمت والده ووالدته.

د- نهاية التحايل:

وإن اتفق السروجي ولاثارو في الخطوط العامة لسير البطل في تحايله، غير أن نهاية التحايل اختلفت، فالسروجي كان في أغلب مقاماته البطل المظفر، أما لاثارو وإن نجح هو الآخر في تحايله، غير أن فشله في بعضها عاد عليه بعواقب وخيمة، فدفع لأجل ذلك ثمنًا باهظًا من الألم الجسدي والنفسي، فقد احتال على الأعمى في جرة النبيذ فكانت النهاية أن اكتشف الأعمى ذلك لأنه "أدار الجرة عدة مرات وتحسسها إلى أن اكتشف الثقب وانتبه لحيلتي، ولكنه مع هذا لم يقل شيئًا وتظاهر بالجهل.

Scientific Journal of Faculty of Education, Misurata University-Libya, Vol. 2, No. 19, Mar. 2022
Published online in March
المجلة العلمية لكلية التربية، جامعة مصراتة، ليبيا، السنة السابعة، المجلد السابع، العدد التاسع عشر، مارس 2022
Issn :2710- 4141
تاريخ الاستلام 2022/02/15 تاريخ النشر 2022/05/31

وبينما الجرة تقطر في فمي كما اعتدت أن أفعل، ودون أن أشعر بالمصيبة... فقد شعر الأعمي اليائس بأن الفرصة قد حانت، فهوى بكل قوته رافعًا جرة النبيذ بكلتا يديه ليتركها تسقط على فمي، كما لو أنه يساعد الجرة بكل طاقته... فشعرت حقيقة بأن السماء وما عليها قد انهارت فوق رأسي، لقد كانت الضربة قوية إلى درجة أفقدتني صوابي، وكسرات الجرة مزّقت وجهي، وحطمته وكسّرت أسناني، التي افتقدتها منذ ذلك الحين" (دي تورميس، 2001، 23).

وعندما احتال على القسيس بحصوله على مفتاح الصندوق من السباك اكتشف القسيس نقص الخبز، فلجأ لاثارو إلى حيلة أخرى للحصول على الخبز، فأحدث ثقوبًا في الصندوق وأخذ يحاكي فعل الفئران في أكل الخبز، موهمًا سيده أن الفئران هي التي جنت على صندوقه وطعامه، فوضع مصيدة لها، وعندما لم تُجدِ المصيدة نفعًا، خمّن الجيران أن من يسطو على صندوقه حيّة، ذلك أن بعضهم رأى حيّة تدخل منزله، فظل السيد متيقظًا لتلك الحية وحركتها، حتى أن لاثارو لم يتمكن من فتح الصندوق ليلاً بسبب شدة اليقظة التي كان عليها سيده، فينظر حتى يغيب نهارًا ليتمكن من سدّ رمقه من ذلك الصندوق، وكان لاثارو يخبئ المفتاح في فمه، "لكن إذا كان لا مفر من وقوع المصيبة، فلا ينفع الحذر حينذاك، إذا شاء حظي ذات ليلة، أنني كنت نائمًا والمفتاح المخبأ في فمي بوضع يجعل تنفسي يمر من ثقب المفتاح، وكان لسوء حظي يصدر صفير خشنًا... فنهض بهدوء وعصاه بيده لأنه اعتقد به فحيح الحيّة... رفع عصاه عاليًا ليقتلها وهو يظن بها تحت حصيرتي، فكان أن هوى على رأسي بضربة شديدة مضيت معها إلى غيبوبة برأس مفحوح... فلما تبيّن له أنه أصابني، وذلك من صراخي الشديد لقسوة ضربته –كما روى لي بعد ذلك– مضى لإحضار النور، حالما عاد وجدني أنوح ومفتاحي مدلى من فمي" (دي تورميس، 2001، 42).

ولم تقف نهاية حيلته هذه عند الضرب، بل امتدت به إلى الطرد، فبعد أن "عدت إلى وعيي بعد ثلاثة أيام وأحسست بنفسي أرقد على الحصيرة، ورأسي مضمد ومدهون بالمراهم والزيوت، فتساءلت مندهشًا:

Scientific Journal of Faculty of Education, Misurata University-Libya, Vol. 2, No. 19, Mar. 2022
Published online in March
المجلة العلمية لكلية التربية، جامعة مصراتة، ليبيا، السنة السابعة، المجلد السابع، العدد التاسع عشر، مارس 2022
Issn :2710- 4141
تاريخ الاستلام 2022/02/15 تاريخ النشر 2022/05/31

– ما هذا الذي أنا فيه؟

فردّ القسيس الشرير:

– لقد اصطدت الفئران والحيايا التي عاثت خرابًا في بيتي...

في اليوم التالي لنهوضي، أمسك سيدي بيدي ودفعني من باب الدار إلى الخارج، وتركني في الشارع... وتعوّذ أمامي كما لو كنت الشيطان نفسه، ثم دخل داره وأغلق الباب دوني" (دي تورميس، 2001، 43).

ويعود اختلاف النهايات إلى أن الحريري اتخذ من السروجي بطلاً يطرح من خلاله صورة فئة مهمشة، ركز من خلالها على الجانب اللغوي من جهة، وتصوير تحايل أهل الكدية، وحذقهم في مهنتهم.

أما لاثارو فقد كان بطلاً يطرح مأساة فرد، صُوّر من خلاله طحن المجتمع لفئات منه، لقد حملت صورة البؤس والمعاناة للفئة الفقيرة.

وفي حين مالت مقامات السروجي إلى الجانب الفكاهي، والإبداع اللغوي، مالت مقامات لاثارو إلى الجانب المأساوي، وإن اتخذت السخرية والفكاهة، وسيلة سردية لطرح معاناته، فقد بيّن التحايل والفشل فيه قوة القهر التي يعيشها البطل.

4. الترحال:

التقى لاثارو مع السروجي بعد عملية التحايل –بغض النظر عن النجاح والفشل– التقيا في سلوك واحد هو الرحلة، لكن إلى أين؟

كلا الشخصيتين اتخذت من المجهول، والفضاء الرحب مكانًا لرحلتهما، فخرج السروجي من عند أصحاب النادي، بعد أن تقمص شخصية واعظ، مودعًا "أخدانَهُ، وانطلَقَ يسحَبُ أرْدانَهُ، فطلبْناهُ منْ بعْدُ بالرَّيّ، واستَنْشَرْنا خبرَهُ منْ مَدارِجِ الطّيّ، فما فينا مَنْ عرَفَ قرارَهُ، ولا دَرى أيُّ الجَرادِ عارَهُ"

Scientific Journal of Faculty of Education, Misurata University-Libya, Vol. 2, No. 19, Mar. 2022
Published online in March
المجلة العلمية لكلية التربية، جامعة مصراتة، ليبيا، السنة السابعة، المجلد السابع، العدد التاسع عشر، مارس 2022
Issn :2710- 4141
تاريخ الاستلام 2022/02/15 تاريخ النشر 2022/05/31

(الحريري، 1980، 181)، كما استضافه في المقامة البرقعيدية، فهرب منه فـــــــــــ"أوْغَلتُ في إثْرِهِ طَلَباً، فكانَ كمَنْ قُمِسَ في الماء، أو عُرِجَ بهِ الى عَنانِ السّماء" (الحريري، 1980، 68).

وقد أخذ لاثارو النهج ذاته، فخرج من سيده الأعمى إلى توريخوس(*)، "وفي اليوم التالي، لما وجدت توريخوس مدينة غير آمنة لي فقد مضيت حتى موضع يدعى ماكيدا(**)" (دي تورميس، 2001، 31). ثم مضى بعد أن طرده القسيس إلى طليطلة "وهكذا كنت أمرّ من باب إلى باب دون جدوى" (دي تورميس، 2001، 45)، وبعد أن تركه حامل السلاح، وجب عليه "البحث عن سيد رابع، وشاء الحظ أن يكون راهبًا من رهبان الرحمة... هجرته دون رجعة" (دي تورميس، 2001، 67).

و لم يكن عند كلا البطلين مكان للوطن، وإن ذكر السروجي في بعض مقاماته حنينه إلى موطنه سروج كقوله:

"سَروجُ داري ولكِنْ كيفَ السّبيلُ إلَيْها
وقدْ أناخَ الأعادي بها وأخْنَوْا علَيْها
فوالّتي سِرْتُ أبْغي حَطّ الذُنوبِ لدَيْها
ما راقَ طرْفيَ شيءٌ مُذْ غِبتُ عنْ طرَفَيْها

ثمّ اغرَوْرَقَتْ عيناهُ بالدّموعِ، وآذَنَتْ مَدامِعُهُ بالهُموعِ، و لم يملِكْ أن يكَفْكِفَها، فقطَعَ إنْشادَهُ المُستَحْلى، وأوجَزَ في الوَداعِ وولّى" (الحريري، 1980، 124- 125).

لكن هذا الحنين لم يبعث في نفسه رغبة في الاستقرار في وطن غيره، بل عوّض هذا الفقد بدوام الترحال فقال:

(*) تبعد أقل من 25 كيلو مترًا عن إسكالونا.

(**)ماكيدا مدينة تقع بين إسكالونا وتوريخوس.

Scientific Journal of Faculty of Education, Misurata University-Libya, Vol. 2, No. 19, Mar. 2022
Published online in March
المجلة العلمية لكلية التربية، جامعة مصراتة، ليبيا، السنة السابعة، المجلد السابع، العدد التاسع عشر، مارس 2022
Issn :2710- 4141
تاريخ الاستلام 2022/02/15 تاريخ النشر 2022/05/31

"ما لي مقَرٌّ بأرضٍ ولا قَرارٌ لعَنْسيْ
يوماً بنَجدٍ ويوْماً بالشّأمِ أُضْحي وأُمسي

ثم إنّهُ اخْتَبَن خُلاصَةَ النّضّ. وندرَ ضارباً في الأرضِ. فناشدْناهُ أن يعودَ. وأسْنَيْنا لهُ الوعودَ. فلا وأبيكَ ما رجعَ. ولا التّرغيبُ لهُ نجعَ" (الحريري، 1980، 368- 376).

وقال لزوجته ناصحًا إياها بالرحيل والفرار (الحريري، 1980، 399):

طيري متى نقّرْتِ عن نخلَةٍ وطلّقِيها بتّةً بتْلَهْ(*)
وحاذِري العوْدَ إليْها ولوْ سبّلَها (**) ناطورُها الأبْلَهْ
فخيرُ ما للّصّ أنْ لا يُرى ببُقْعةٍ فيها لهُ عَمْلَهْ"

أما لاثارو، فقد غاب وطنه، وغاب حنينه إليه ولم يظهر إلا في باب التعريف بالذات في قوله: "ليعلم سيادتكم قبل كل شيء، أنهم يدعونني لاثارو دي تورميس، ابنٌ لتوماغونثاليث وأنطونا بيريث، وكلاهما من تيخارس، وهي ضيعة بالقرب من مدينة سلمانكا، أما ولادتي فكانت عند حافة نهر تورمس، ومن هنا جاء لقبي" (دي تورميس، 2001، 15).

ثالثًا– النهاية:

اتفقت النهاية بين البطلين، فكانت الاستقرار، والتخلي عن فكرة الارتحال، فاستقر السروجي في سروج، بعد إعلان توبته وتصوفه (الحريري، 1980، 368- 376)، واستقر لاثارو في سان سلفادور، واستمر عمله فيها ناديًا عموميًّا، بعد أن أعلن استسلامه للحياة، ومصافحته إياها، مقابل أن تمنحه المال، أعلن عن ذلك فيما حدث من حديث الناس عن زوجته، فهم "يحكون في أشياء لا أعرف لها أصل، أو لا أعرف بها، وهو أنهم شاهدوا امرأتي تمضي لترتيب فرائش البطريرك وتهيئ له طعامه" (دي

(*) بتله: لا رجعة فيها.

(**) سبّلها: جعلها وقفًا في سبيل الخير.

Scientific Journal of Faculty of Education, Misurata University-Libya, Vol. 2, No. 19, Mar. 2022
Published online in March
المجلة العلمية لكلية التربية، جامعة مصراتة، ليبيا، السنة السابعة، المجلد السابع، العدد التاسع عشر، مارس 2022
Issn :2710- 4141
تاريخ الاستلام 2022/02/15 تاريخ النشر 2022/05/31

تورميس، 2001، 80)، فرفض مجرد التفكير في هذا الأمر، مطاوعًا نصيحة البطريرك التي وجهها إليه بقوله: "يا لاثارو إن من يلتفت إلى ألسنة السوء لن يحصل على شيء... وأنصحك أن لا تحفل بما يقال لك بل بما ينالك من خير، أعني فائدتك" (دي تورميس، 2001، 80- 81).

Scientific Journal of Faculty of Education, Misurata University-Libya, Vol. 2, No. 19, Mar. 2022
Published online in March
المجلة العلمية لكلية التربية، جامعة مصراتة، ليبيا، السنة السابعة، المجلد السابع، العدد التاسع عشر، مارس 2022
Issn :2710- 4141
تاريخ الاستلام 2022/02/15 تاريخ النشر 2022/05/31

المصادر والمراجع:

أولاً– المصادر:

- الحريري، *مقامات الحريري*، دار صادر، بيروت، 1980.
- لاثاريو دي تورميس، *مقامات لاثارو*، ت: عبد الهادي سعدون، دار أزمنة للنشر والتوزيع، ط 1، 2001م.

ثانيًا– المراجع:

- بديع الزمان الهمذاني، *مقامات بديع الزمان الهمذاني*، تح: محمد عبده، دار السعادة، القاهرة، (د ت)، (د ط).
- جان كامب، *الأدب الإسباني*، ت: بهيج شعبان، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1956.
- جميل حمداوي، *الرواية البيكارسكية*، دنيا الوطن، 27– 11– 2006.
- أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني، *الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة*، تح: إحسان عباس، الدار العربية للكتاب، ليبيا – تونس، ط 1، 1981م.
- شوقي ضيف:
  أ– تاريخ الأدب العربي، *عصر الدول والإمارات والأندلس*، دار المعارف، ط 2، (د.ت).
  ب– من المشرق والمغرب، *بحوث في الأدب*، الدار المصرية اللبنانية، ط 1، 1998.
- أبو الطاهر محمد بن يوسف السرقسطي، *المقامات اللزومية*، تح: حسن الوراكلي، جدارا للكتاب العالمي، عمان– الأردن، عالم الكتب الحديث، إربد– الأردن، ط 2، 2006م.
- أبو العباس أحمد بن عبد المؤمن القيسي الشريشي، *شرح مقامات الحريري*، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا– بيروت، (د.ط) ،(د.ت).
- القلقشندي، أبو العباس بن علي الفزاري، *صبح الأعشى*، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1919.
- محمد بن علي بن أحمد شمس الدين الداوودي المالكي، *طبقات المفسرين*، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، (د.ط)، (د.ت).
- محمد غنيمي هلال، *الأدب المقارن*، (د ن)، (د ت).
- ابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم، *لسان العرب المحيط*، دار لسان العرب، بيروت، 1970.